رحلة اوليا جلبي

— ٥ —

ثم وصلنا الى حماة (١) — وبعد ان ذكر الجلبي نبذة من تاريخها شرع يصف حالتها في زمن مروره قال :

(١) حماة من امهات مدن الداخل في الشام تعلو عن سطح البحر ٣٠٨ امتار ، وهي في وهدة سحيقة من وادي العاصي ولذا كانت حارة ورطبة ، تمر منها سكة حديد رياق — حلب « طولها ١٨٩ كيلو متراً » وطريق السيارات المعبدة الممتدة بين دمشق وحلب «طولها ٢١٤ كيلو متراً » وتبعد حماة عن حمص ٤٥ وعن حلب في سكة الحديد ١٤٣ كيلو متراً .

وقد وردت حماة في التوراة مراراً باسم حمث الكبرى تمييزاً لها عن حمث الصغرى في قيليقية وذلك تنويهاً بذكرى حماة من ابناء كنعان الذي ينسب بناؤها اليه . وكانت على ماقيل الحد الشمالي للارض الموعود باعطائها لبني اسرائيل . وخلاصة تاريخ حماة ان الحثيين سكنوها قديماً فيما سكنوا من مدن الشام الشمالية بدليل العثور على بعض كتاباتهم فيها وقد قاست كما قاسته تلك المدن من توالي غارات فراعنة مصر وملوك آشور ودفاع الحثيين واستيسالهم في معارك طاحنة دامت قبل الميلاد عدة قرون الى ان انقرضوا وخلفهم الآراميون ثم الامرائيليون ثم اليونانيون السلوقيون وقد سماها احد ملوكهم انتيوخس ابيفانوس الرابع ابيفانيا وظلت معروفة بهذا الاسم في دولة السلوقيين ولما زالت رجع الناس الى استعمال اسمها القديم ثم جاء الرومانيون .

لا جرم ان بلاد الشام الشمالية في عهد اليونان والرومان تقدمت في العمران وكان نصيب حماة ان فتحت القنوات في براريها الشرقية ونصبت النواعير على العاصي فازدهرت الزراعة وانتشرت القرى العامرة في شرقي سلمية وحول الأندرين . على ان حماة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كانت في ذلك العهد تابعةً لحمص لسبق هذه تلك في المكانة والحضارة . ولما كان الفتح الاسلامي جاءها ابو عبيدة في سنة ١٧ فصالح اهلها على الجزية لرؤوسهم والخراج على ارضهم وجعل كنيستهم العظمى جامعاً وهو الآن الجامع الكبير وسيأتي وصفه . وجعل الخلفاء الراشدون حماة من اعمال جند حمص للسبب الذي تقدم ذكره . ومن الاحداث التي حصلت فيها في اواخر القرن الاول في خلافة عبد الملك بن مروان ارسال قيصر الروم يوستنيانوس قائدين اسمهما موريق وموريقان جاءا وخربا دير القديس مارون الذي كان على العاصي بين شيزر وحماة وقتلا رهبانه البالغين خمسمائة وشتتا شمل اتباع هذا القديس .

ولما انتقلت الخلافة من يد الأمويين الى العباسيين في سنة ١٣٢ من القرن الثاني اورث انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فتوراً في الشام لأنها اصبحت بعيدةً عن نظر الخلفاء الذين قل اكتراثهم بها يحكمها العمال حسب اهوائهم فكان ذلك مدرجةً لانحطاط شأنها وفي القرن الثاني وفي النصف الاول من الثالث اشتركت حماة مع حمص في الفتن والحروب الاهلية التي كانت تحدث تارةً من تأجج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين وتارةً من الوثوب بالعمال ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين . وفي النصف الثاني من القرن الثالث ظهرت بوادر الضعف في العباسيين وصار المتغلبة من اولئك العمال ينزعون الى الاستبداد في الامر وكان اولهم عامل مصر احمد بن طولون فقد نزع ربقة الخلافة واستولى على الشام فأخذ حماة فيما اخذه وعقبه ابنه خمارويه وحفيده جيش . وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة بقيادة صاحب الشامة وخربوا حماة والمعرة وسلمية وقتلوا اهلها حتى النساء والاطفال فجاءهم في السنة التالية جيش الخليفة المكتفي من بغداد وجرت الوقعة الفاصلة في قرية تمنع (التمانعة قرب خان شيخون وشرقي طريق السيارات بين حماة وحلب) وكانت الدائرة على القرامطة . وفي اواخر القرن الثالث زالت دولة بني طولون على يد الخليفتين المعتضد والمكتفي اللذين لم يتوانيا عن القضاء على كل خارجي فظهرت بعدها دولة الاخشيد محمد بن طغج في مصر والشام ورأت البلاد مارأته من اقتتاله مع عامل الخليفة ابن رائق ومع سيف الدولة بن حمدان وبعد زوال الاخشيديين في منتصف القرن الرابع دخلت حماة في حوزة سيف الدولة بن حمدان واعقابه من بعده وتبعت حلب . وجاء الفاطميون اذ ذاك ينازعون العباسيين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخلافة ورأت البلاد البلاء العميم من دوام الحروب بين الحمدانيين ثم المرداسيين وغيرهم من عمال العباسيين وبين جيوش الفاطميين . وكان الروم ينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض فيغيرون من حين الى آخر على شمالي الشام ويصلون الى حماة وحمص وما حولها فيعيثون وينهبون ويسبون ويعودون .

ولما زالت امارة الحمدانيين في اوائل القرن الخامس وتقسمت القبائل العربية بلاد الشام تبعت حماة صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب فبقيت في يده ويد اعقابه الى ان زالوا وفي العقد الثالث من ذلك القرن تبعت حمص في عهد بعض عمالها ممن كانوا يخطبون للفاطميين وفي آخر القرن الخامس جاء السلجوقيون فاقطعها السلطان ملكشاه لعامله في حلب قسيم الدولة آق سنقر وهو ابو عماد الدين زنكي فتبعت حلب . وفي غرة القرن السادس ألحقت بحمص في عهد عاملها قيرجة خان بن قراجة السلجوقي ثم ضمت الى دمشق في عهد الاتابك طغتكين واعقابه من بعده ثم عادت الى حلب في عهد عماد الدين زنكي الذي استخلصها من الاتابكيين واورثها ابنه نور الدين محموداً ومن هذا الى ابنه الملك الصالح اسماعيل . وخربت حماة في هذا القرن بالزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ٥٥٢ فرممها نور الدين وبنى اسوارها وقلعتها وبنى فيها الجامع والمستشفى المعروفين باسمه . وفي العقد الأخير من القرن السادس استخلص صلاح الدين الايوبي حماة فولى عليها خاله شهاب الدين الحارمي وبعد موته اقطعها لابن اخيه تقي الدين عمر فتملكها هذا واعقابه المعروفون بالبيت التقوي خلال ٦٨ سنة وانتهى ملكهم بخلع الملك الافضل بن الملك المؤيد ابي الفداء . ولم يكن لابناء البيت التقوي من الملكية الا الاسم والابهة وكانوا فعلاً تحت إمرة ابناء عمهم صلاح الدين والسلاطين المماليك الذين خلفوهم . على ان حماة نالت في عهدهم حظًا موفوراً من العمران وبعد زوال دولتهم ومجيء هولاكو في القرن السابع وتيمورلنك في اوائل القرن التاسع وتخريبهما قلعتها واسوارها ونيلهما منها — انحط شأن حماة وتضاءل عمرانها وظلت في عهد المماليك يديرها عمالهم فتسعد وتشقى تبعًا لصلاح هؤلاء او فسادهم . وفي القرن العاشر دخلت في ملك العثمانيين وصار يتولاها المتسلمون والباشات الذين يوظفهم ولاة طرابلس او دمشق حسبما تكون حماة مرتبطة بهذه اوبتلك فنالها في العهد العثماني مانال القطر الشامي كله من الاهمال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسوء التدبير الى ان حسنت الحالة في الجملة في اواخر القرن الماضي فجعلت حماة متصرفية ألحقت بها اذ ذاك أقضية حمص وجبل الكلبية ثم تبعتها سلمية في مطلع القرن الحالي ·

ومما يستحق الذكر ان الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حماة مرتين ففشلوا بعد ان كاد الأمر يتم لهم · الأولى في سنة ٥١١ في عهد واليها شهاب الدين محمود فانهم انتهزوا فرصة خسوف القمر فوصلوا الى ارباض حماة وحاصروها والثانية في سنة ٥٧٢ انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين في مصر ومرض عاملها خاله شهاب الدين الحارمي فحاصروها ، لكنهم في المرتين اجبروا على الرجوع · على انهم عند ضعف المسلمين وتنازع ملوكهم كانوا — ونخص بالذكر الداوية اي الفرسان الهيكليين المرابطين في حصن الاكراد — لا يتوانون عن الاغارة على حماة فينالون من ضواحيها ويغرمون احياناً ملوكها وعمالها مبالغ طائلة ويرجعون ·

هذا وقد حاولت ان اجد وصف حماة في القرون الماضية لانظر كيف كان عمرانها في ادوار متعاقبة فلم اعثر على اقدم من وصف القرن الثالث أنقله عن ياقوت · قال : وذكر احمد بن الطيب فيما ذكره من البقاع التي شاهدها في مسيره مع المعتضد من بغداد الى الطواحين (؟) فقال بعد ذكره حمص « وحماة قرية عليها سور حجارة وفيها بناء بالحجارة واسع والعاصي يجري امامها ويسقي بساتينها ويدير نواعيرها » وكان قوله هذا في سنة ٢٧١ فسماها قرية اه · قال احمد الصابوني الحموي في كتابه تاريخ حماة المطبوع في سنة ١٣٣٢ ماخلاصته ان احمد بن الطيب سمى حماة قرية وليست هي قرية كما قال ولكن من يشاهد بغداد في زمن المعتضد لايستغرب منه تسميته حماة قرية لأن العباسيين لما اخذوا الخلافة لم يكن لهم عناية الا باعمار بغداد والعراق فاهملوا شأن البلاد الشامية ومنها حماة ولتوالي هذا الاهمال والفتن خربت الكور والقرى التي كانت حماة تستقي منها موارد ثروتها مثل كورة البلعاس والاندرين ولطمين وصوران وبعرين وغيرها حتى صارت حماة تسمى قرية في نظر احمد بن الطيب اه · وقال الاصطخري في اواسط القرن الرابع مايدل على صغر حماه إذ ذاك ومضارعتها شيزر : واما شيزر وحماة فانهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا الماء والشجر والزرع ·

ومر ابن جبير في القرن السادس بعد ان مضى على الزلزلة سنة ٥٥٢ التي خربت حماة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالمرة نحو ربع قرن ، وكانت نشطت من عثرتها بفضل الدولتين النورية والصلاحية لكنها لم ترق كثيراً عيني ذلك الاندلسي المبتهجة برأى غرناطة وقرطبة والحمراء فلم تعجبه أفنيتها الضيقة ومبانيها المزدحمة ولم ينشرح الا لحسن العاصي وجمال البساتين . وهاك ماقاله : « حماة مدينة شهيرة في البلدان قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمومة وديارها مركومة ، لا يهش البصر اليها عند الاطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامناً فيها ، حتى اذا جست خلالها ونقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه أساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قدانتظمت طرفيه بساتين تتهدل أغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه ، ينسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتدالها ، وباحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتاً عدة يخترق الماء من احد دواليبه جميع نواحيها فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس اليه وتتقيد الأبصار لديه وبازاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع وان كانت دونها في الحصانة والمنع سُرتب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها فلاتخاف الصدى ولاتهيب مرام العدى . وموضع هذه المدينة في وهدة[1] من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل[2] والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان والمدينة السفلى[3] تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها وبالمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لان جانبها المتصل بالنهر لايحتاج الى سور وعلى النهر جسر كبير[4] معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها[5] وربضها كبير فيه خانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ لدخول المدينة وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات اه .

ولم ينبه ذكر حماة بعد خموله وتسعد الا في عهد أبناء تقي الدين عمر بن ايوب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فانهم لما آل اليهم ملك حماة وضواحيها عمروها بالأبنية الضخمة والقصور الفخمة والأسواق الحافلة والأسوار المحكمة يدلنا على ذلك ماذكره ياقوت في أوائل القرن السابع قال : حماة مدينة كبيرة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها وتصب الى بركة جامعها ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لانه منحط عن المدينة ويسمون السور السوق الاعلى . وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها وحفر خنادقها نحو مائة ذراع واكثر وهي مدينة قديمة جاهلية ذكرها امرؤالقيس في شعره (أوردناه في بحث شيزر) الا انها لم تكن قديماً مثل ما هي اليوم بسلطان مفرد بل كانت من عمل حمص اه . ويدلنا على تلك العناية ايضاً ماذكره ابن بطوطة في القرن الثامن : حماة احدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات ويشقيها العاصي وليا ربض يسمى بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان . وبحماة الفواكه الكثيرة منها المشمش اللوزي الشهير اه .

وقد فسر الصابوني في تاريخ حماة ماذكره ابن جبير وياقوت فقال : كانت حماة قسمين قسم في محلة باب الجسر وقسم في المدينة وبالنظر لارتفاع المدينة عن باب الجسر كانت تسمى القسم الاعلى وسوقيا السوق الأعلى وكذا جامعها كان يسمى الجامع الأعلى وكانت مسورة بسور من الحجر الابيض عظيم يمتد الى تل العريضة وله أبواب عديدة منها باب النصر وباب المغار وباب النهر وباب العميان وباب الغربي وباب القبلي . وكان لمحلة باب الجسر سور يحيط بها من جهة والعاصي يحيط بها من الجهة الاخرى وعلى العاصي الجسر الكبير له باب من جهة الشمال الغربي وباب آخر في مبدإه من جهة القبلة ولسورها أبواب منها باب تدمر وباب النقفي وباب حمص . وقال شرحاً لما ذكره جبير وأشرنا اليه برقم (١) الوهدة المكان المنخفض فان حماة في وادٍ عميق كانت أرضه مساوية لارض النهر ولكثرة الزلازل وتراكم التراب ارتفعت الارض عن النهر . وعن الرقم (٢) انه تل العريضة . و (٣) محلة باب الجسر و(٤) جسر محلة باب الجسر و (٥) كان في محلة الدهشة في بستان يسمى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاتون حوانيت وخانات ينزل فيها المسافر اذا جاء ليلاً وأبواب السور مغلقة ويسمى مثل هذا ربضاً . وكان بنيان محلة المدينة أوسع وأسواقها أحفل من أسواق محلة باب الجسر وكان بين القسمين طريق مما وراء القلعة من البستان الذي يسمى الآن بستان الخضر . ثم امتد العمران لجهة الحاضر فحدثت محلات عديدة كما امتد البنيان في زمن نورالدين الشهيد حتى باب حمص جانب رحى المسرودة . اما مكان السوق فقد كان مرتفعاً من الشمال ومنخفضاً في الجنوب وكان فيه مقابر واذا طغى العاصي فاض على هذا القسم المنخفض وملأه . فلما ضاقت البلد بالسكان مشى الناس بالبنيان الى موضع السوق فبنوا البيوت والحوانيت ولما ولي الملك المنصور حماة بنى هذا السوق وكان يعرف بسوق المنصورية .

قلت وكان ينتظر من الملك المؤيد ابي الفداء ان يصف لنا عاصمة ملكه حماة في كتابه « تقويم البلدان » وصفاً كافياً يطلعنا به على الرقي والعمران اللذين نالتهما في عهده وعهد اجداده التقويين الايوبيين في القرنين السابع والثامن ولكنه رحمه الله لم يشذ عن الايجاز الذي سار عليه في وصف بقية البلدان فاكتفى بقوله : حماة من الشام بين حمص وقنسرين وحماة مدينة أزلية ولها ذكر في كتب الاسرائيليين وهي من انزه البلاد الشامية والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وفي داخلها الأرحية على الماء وبها نواعير على العاصي تسقي اكثر بساتينها ويدخل منها الماء الى كثير من دورها قال الهروي في كتابه المعروف بالزيادات : وحماة بلدة قديمة مذكورة في التوراة وهي وشيزر مختصتان بكثرة النواعير دون غيرهما من بلاد الشام اه .

وقال شيخ الربوة في القرن الثامن ايضاً : حماة حماها الله بها سلطان ملك (لعله يعني الملك المؤيد ابا الفداء) ونائب مستقل وهي مدينة حسنة خصبة كثيرة الخير والأرزاق يحوطها النهر العاصي ويأتيها جارياً من بين جانبيها ويجمع بين الجانبين قنطرة وعلى العاصي نواعير كبيرة التي لم ير في الآفاق مثلهن يحملن من العاصي أنهاراً من الماء يسقون به البساتين والاماكن وهي كثيرة الثمار وبها المشمش الكافوري اللوزي الذي لم ير في سائر الآفاق مثله ومن اعمالها الكبار بعرين وتسمى بارين وهي قلعة منيعة وسلمية وهي على سيف البرية (بناها عبدالله بن صالح وعلي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم) ولها قناة كبيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحمل من سلمية الى حماة تسقي بساتينها واراضيهـا وهو نهر مليح . وقال ايضاً عن حماة في فصل اعياد النصارى ومواسمهم : وفي عيـد الفسح تبطل اهل حماة مدة ستة ايام اولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد وآخرها يوم الثلاث ثالث الفسح وتنتقش فيه النساء وتلبس فيه الكساوي الفاخرة ويصبغون فيه البيض ويعملون الأقراص والكعك ، المسلمون اكثر من النصارى . ويرد الى حماة اهل سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلمية وكفرطاب وابو قبيس ومصياف والمعرة وتيزين والبـاب وبزاعة والفوعة وحلب ويطلعون جميعاً الى العاصي ويضرب لهم اهل حماة على شطوطه خياماً ويركبون في المراكب بالمغاني ويرقصون في المراكب النساء والرجال على الشطوط حتى تهتك الخلائق ويمضي لهم ستة ايام لا يرى في الوجود مثلها وكذلك يبطلون اول يوم صوم النصارى ويقولون قد طلعوا يلتقون الراهب ويبطلون ايضاً يوم نزول الشمس برج الحمل ولم أر هذا في مدينة غيرها . وفي ليلة عيد الميلاد يوقد اهل حماة كبيرهم وصغيرهم وجليلهم وحقيرهم وجندهم واميرهم من القنـاديل فوق الاسطحة ومن القنب والشيح شيئاً عظيماً ويوقدون من البارود والنفط انواعاً شتى وكذلك في عيد الختان ويسمونه الميلادة الصغيرة وربما يوقدون فيها اكثر من الكبيرة اه .

قلت وقناه سلمية التي ذكرها شيخ الربوة كانت تصل الى حماة وتسقي الارض الفسيحة العذبة الممتدة في شماليها وقد درست وتنوسي خبرها اما الزوارق فقد بقي منها اثر ضئيل كان قاصدو النزهة من الحمويين يركبونها من جسر المراكب الذي صار يدعى جسر السرايا حيث العـاصي زائد العمق في الجملة ويذهبون الى مكان في شرقي البلدة يدعى البشريات فيـه ناعورتان كبيرتان تسقي البساتين نسبةً الى دفين بجانبها يسمى الشيخ بشر . ولم يبق في حماة من الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة الا النـادر وفقد منها المشمش اللوزي الذي ما زال موجوداً في دمشق والقطر المصري ومعروفاً بالحموي وليس في بساتين حماه وازوارها الا الزروع المسقوية من الحبوب والبقول الواسعة الغلال وقليل من الاشجار غير المطعمة وما ذلك الا من اهمال سراة حماه ملاكي هذه البساتين وانصرافهم لزيادة عدد ما يقتنونه من القرى العذبة دون العناية باتقان العمل .

وفي القرن التاسع في دولة المماليك وفي القرن العاشر في زمن العثمانيين كسدت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لضاعة العلوم الدنيوية فلم ينشأ احد من الرحالين أو الجغرافيين ينبئنا عما كان عليه اذ ذاك عمران حماة وغيرها من مدن الشام مما تقدم معنا ذكره أو تأخر ، أو انه نشأ ولم نعثر على ما كتبوه . وكذلك لم ينشأ في القرن الحادي عشر سوى سائحنا أوليا چلبي الذي وصف حماة على قدر ماوعاه فهمه . على ان المعروف من التواريخ ان حماة بعد زوال دولة الايوبيين التقويين والخراب الذي أصابها من هولاكو وتيمورلنك واستمرار فوضى الأحكام في عهد المماليك ودثور سلمية وغيرها من القرى الشرقية التي لا حياة لحماة الا بها وفصل المعرة عنها أفل نجم حظها ، وفي عهد العثمانيين دام هذا الأفول لتوالي جور المتسلمين الذين كان يرسلهم الولاة من طرابلس أو دمشق وفتن الأجناد وعسفهم حتى هاجر كثير من الحمويين على مارواه المحبي الى بقية مدن الشام الاكثر اطمئناناً فخلت حماة من رجالها وانحط شأنها كثيراً . وفي القرن الماضي ولاسيما في عهده الأخير دأبت الأسر الكبيرة التي أوجدتها أحداث ذلك العهد على استصفاء العقارات في المدينة والمزدرعات في القرى بشتى الوسائل حتى لم يبق منها لاسيما في البرية من الارضين المملوكة لاهليها الا ما ندر . وأصبح الحمويون من جراء ذلك فريقين متباينين ، العظامي الذي يسير فخوراً لسعة املاكه ووفرة أرزاقه تدر عليه وهو مستريح ريعاً ينفقه في نعمه ورفهه ، والعصامي وهم السوقة والفلاحون الذين يكدون مدى العمر للحصول على كفاف العيش والأجور التي حقت عليهم لأولئك العظاميين . والشحناء من جراء هذا التباين مستحكمة الحلقات بين هذين الفريقين .

ومنذ نصف قرن توافد رحالة الافرنج على حماه فأعجبهم جمالها الطبيعي ومنظرها الأثري واستغربوا انسياب عاصيها وشدو نواعيرها وأزياء أهلها وأطوارهم فكتب بعضهم ومنهم ايزامبر وشوفة في سنة ١٨٨٢ وفان برشم في سنة ١٨٩٨ وموريس باريس في سنة ١٩١٤ ومونمارشة سنة ١٩٣٢ ماأوحته اليه قريحته الغربية . وخلاصة ما كتبوه بما يكادون يتفقون في مآله ان حماه اختبأت في منخفض العاصي ومنعرجاته لا يتميزها القادم من بعيد الا من قرونها وانها احتضنت العاصي بجسورها وأغمست فيه دورها وقصورها وأطنبوا بنضرة رياضها وزهو أشجارها وأزهارها وروعة عاصيها وانسيابه الهادئ ووصفوا نواعيرها معجبين بشكلها وعظمتها ودورانها وشدوها المطرب وصعوبة اعتياد الغريب له في لياليه الاولى وانتثار الماء منها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانصبابه في القناطر الممتدة الى الأحياء والبساتين وتمثلوا العصور الوسطى عند رؤيتهم مباني حماه الأثرية المركومة التي لم يخالطها حتى الآن بناء حديث وأسواقها المعقودة ودكاكينها المزدحمة بالقرويين والبدو وعند نظرهم الى أطوار سكان حماه وأزيائهم المتنوعة الألوان والأشكال وشكوا فقدان الفنادق والمطاعم وحرمان أسباب الرفه الجالبة للسياح وان حماه بلدة منكمشة ، بعيدة عن الاتصال بحضارة الغرب ، قليلة الترحاب بالأجانب وأهلها متعصبون والحياة الاجتماعية فيها لاسيما عند أسرها الكبيرة التي بيدها الملك كله تذكر عهد الإقطاع وان من المباني الأثرية التي تستحق الزيارة في حماه قصور بني العظم وبني الكيلاني والجامع الكبير والجامع النوري وجامع الحيات والقلعة ... الخ .

ومما قاله احدهم وهو مونمارشة صاحب « الدليل الازرق » : وحماه مثل أكثر مدن الشام لا يحتاج التجول فيها ركوب المركبة فضياع الوقت يكاد لا يذكر ناهيك ان الماشي يتملى أكثر بمشاهدة الطرق . فالأحياء المبنية في ضفة العاصي اليسرى أكثر امتداداً واستمتاعاً منها في ضفته اليمنى . واذا غادر السائح جسر السراي يسير شمالاً في شارع عريض يوازي العاصي (يعني شارع ابي الفداء) فيمر من تحت قناة ناعورة كبيرة ثم يصل الى القصر العربي الفخم الذي بناه اسعد باشا العظم حاكم حماه في سنة ١٧٤٢ م وقد اتخذ الآن مدرسة اهلية دعيت دار التعليم والتربية . وهذا القصر اصغر واقل بهاء من قصر بيت العظم في دمشق ، له فناآن احدهما علوي والثاني سفلي ، وفي العلوي قاعة ذات قباب امامها صف من الاعمدة ، ونجارة الخشب فيها ودهانه ووشيه من طراز القرن الثامن عشر وفي جنب القاعة غرفة فيها رسوم جميلة احدها يتمثل مدينة حلب بمنظرها العام . واجمل ما في هذا القصر موقعه ، فان الواقف في فنائه العلوي يشرف على مشاهد جميلة في ضفتي العاصي وعلى احياء حماه التي في ضفته اليمنى (يعني الحاضر) . وبعد الخروج من القصر يسير السائح شمالاً فيمر من قرب ناعورتين عظيمتين جداً ثم من تحت ساباط الى ان يصل الى جسر على العاصي في قربه ثلاث نواعير ، ويشاهد على ضفة العاصي اليمنى قصراً ذا قبة لآل الكيلاني ذوي الوجاهة في حماه والواقف على هذا الجسر تقر عينه بمناظر الحدائق الجميلة وصوت النواعير المطرب وثمة في الضفة اليسرى حمام عربي قديم واذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رجع السائح في الطريق الصاعدة من الجسر يزور الجامع النوري (وبعد ان وصف هذا الجامع قال) ثم يصل الى التل الذي كانت تعلوه القلعة المندرسة والواقف في ذروة هذا التل يتمتع بمشاهدة حماة كلها وفي جنوبي هـذا التل جامع صغير له قبة مضلعة تدعى قبة الحسنين (فيها مقام يقال انه موضع رأس الحسين حينما مروا به من كربلاء الى دمشق) وفي الجامع كتابة تذكر ان نور الدين محمود جدده بعد فنائه عقيب الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ١١٥٧ م . ثم يصل الى الجامع الكبير (وبعد ان وصف هـذا الجامع وضريح الملك المظفر قال : واذا استأنف السائح السير في ذلك الطريق وعرج نحو اليمين يواجه العاصي ويرى ناعورة المحمدية الكبرى (في باب النهر) المبنية في القرن الرابع عشر وهي تسقي الجامع الكبير . فاذا اجتاز الجسر (يعني جسر باب الجسر) وعليه طاحونة قديمة يلاقي وسط الحدائق جامع الحيات (وبعد ان وصف هذا الجامع وضريح ابي الفداء قال: وبناء هذا الجامع خالٍ من الاتقان الصناعي لكن منظره من الجسر المجاور له وخياله المنعكس على مياه العاصي الذي تحيط به الحدائق يجعل له منظراً من أروع مناظر حماة . ويعود السائح من جامع الحيات الى المدينة بعد ان يمر من سفح تل القلعة ويجتاز ساحة خالية وسيعة تمتد امامه (كان تقام في هذه الساحة سوق عامة كل يوم خميس وقد شادوا حديثاً في وسطها بناء جميل لمدرسة التجهيز الاميرية) ثم ينفذ الى اسواق حماة التي لاتختلف كثيراً بحركتها وجلبتها عن اسواق دمشق وحماة وتفوق تلك بأنها لا تزال محتفظة بوضعها وبنائها الاثريين اه .

« للبحث صلة » وصفي زكريا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net